فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر (لأحمد سمايلوفتش)

محمد ماهر حماده
أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

سمايلوفتش، أحمد/ فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر. ـــ القاهرة : مطابع دار المعارف، [١٩٨٠م]، ٧٧٩ ص.

العلاقة بين الشرق والغرب قديمة كل القدم، وهي عدائية في الأعم والأغلب، على الرغم من العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية التي سادت بين الطرفين، وكانت أوروبا ولا تزال هي البادئة بالعدوان. فقديماً هاجم الاسكندر المكدوني بلاد الشرق وأخضعها لسلطة أوربا السياسية والثقافية مدة قاربت الألف عام (٣٣٠ ق م ـــ ٦٣٢م) ولقد حرر الإسلام الشرق من ربقة طغيان الغرب وأصبح القوة العظمى من جميع الوجوه التي تمكنت أن تقف في وجه الغرب وأن ترد عدوانه، بل وأن تجعله يشعر بصغاره بالموازنة مع قوة الإسلام السياسية والحضارية والفكرية، ولكن ذلك لم يطل فترة طويلة، إذ أنه بعد انقضاء عصور الإسلام الزاهية استيقظ الغرب من سباته وبدأ يتطلع إلى إعادة سيطرته على مقدرات الشرق السياسية والحضارية. وقد تم له ذلك بعد عراك مع الشرق استمر أربعة قرون أو أكثر حتى تمكن أن يفرض سلطانه السياسي والثقافي على القسم الأكبر من بلاد الشرق، وذلك أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولم تستطع دول وشعوب الشرق المختلفة أن تتخلص من براثن الاستعمار الأوربي، إلا بعد أواسط القرن الحالي، وبعد أن ترك فيها جراحات وآثاراً رهيبة.

وقد رافق هذا الغزو العسكري لبلدان الشرق غزو فكري لا يقل أهمية عنه وربما كان أشد خطراً منه، وقد اضطلع بهذه المهمة عدد من المؤسسات في ديار الغرب كان الاستشراق أحد أدواتها الرئيسية في هذا الغزو.

ولقد ألف الكثير عن الاستشراق ومفهومه ووسائله وأثره وما ماثل ذلك. والقوم بين محبذ ومهاجم، ولا زال الموضوع خصباً وأهلاً لدراسات متعددة الجوانب. فالموضوع واسع وعميق ومتشعب وذو نواح كثيرة بحيث يصعب الاحاطة التامة بجميع نواحيه في مؤلف واحد. أضف إلى ذلك وجهات النظر المختلفة التي يعتنقها هذا المؤلف أو ذلك أو اهتماماته وميوله ومفاهيمه.

وقد أصبح الاستشراق وموضوعه مجالاً للدراسة في عدد من الجامعات ومن بينها الأزهر الذي منح درجة الدكتوراه العالمية بمرتبة الشرف الأولى للسيد أحمد سمايلوفيتش على رسالته المعنونة باسم «فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر» وذلك سنة ١٩٧٤م. والباحث المذكور يوغوسلافي الجنسية مسلم وهو استاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية بكلية الدراسات الإسلامية بمدينة سيراجيفو اليوغوسلافية ورئيس المشيخة الإسلامية لجمهوريات البوسنة والهرسك وكرواتيا وسلوفنيا بيوغوسلافيا. والكتاب مطبوع في القاهرة بمطابع دار المعارف ولا يحمل اسم الناشر ولا تاريخ الطباعة ولكن رقم الإيداع القانوني يحمل تاريخاً هو سنة ١٩٨٠م.

والكتاب جهد ضخم بذل فيه جهداً كبيراً لا ينكر ورجع إلى المئات من المصادر والمراجع والكتب أغلبها باللغة العربية، وطباعته لا بأس بها وتحمل المسحة الأكاديمية، وتملأ الهوامش أسفل الصفحات وقد ألحق المؤلف بكتابه لائحة مصادره التي يبلغ عددها، بين كتاب عربي وأجنبي ومقال دورية ٦٦٩ مصدراً، مع فهرس أو بالأحرى لائحة بمحتويات الكتاب، ولكن ليس هناك كشاف هجائي عام باسماء الاعلام أو الأماكن أو الكتب .. ويبلغ عدد صفحات الكتاب بمجموعه ٧٧٩ ص. ولقد صدر الكتاب وقدمه إلى القراء الدكتور مصطفى محمود.

ويتألف الكتاب من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

والمقدمة قصيرة مختصرة شرح فيها المؤلف دوافع اختياره هذا

الموضوع وأسلوبه في البحث وعناصر هذا البحث وقد شرح عناصر بحثه بايجاز شديد يكفي للتعريف الموجز فقط بهذه العناصر. ففي شرحه لأسباب اختياره هذا الموضوع بالذات يقول: وقد لاحظت أن الهجوم على الإسلام يأتي غالباً من جانب الاستشراق الذي لا يقدس إلا غاياته وأهدافه، فرأيت لزاماً علي أن أدرس هذا الموضوع لأتعرف على مكامن الخطر كي أعد نفسي للدفاع عما نتمسك به جميعا من قيم دينية وفكرية وخلقية(١).

كذلك لاحظ المؤلف أن الاستشراق قد جانب الصواب في كثير من اتجاهاته وبحوثه ونظرياته، كما وأنه (أي الاستشراق) يحاول بكل ما له من وسائل وقوة وأفكار أن يفرض مفاهيمه هو على العالم العربي الإسلامي بأسره، ومن ثم وجب أن يدرس بعناية بالغة، وأن يعنى كل مسلم ومسلمة بدراسته وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بدينهم ولغتهم وأدبهم.

وهو يؤكد أن نظرته إلى الأمور والقضايا التي أثارها أتته نتيجة للنظرة القرآنية إلى ظواهر الكون والمجتمع والفكر، حيث بدت له التجربة العربية الإسلامية فريدة النوع في أفق التاريخ البشري كله مؤكدة صلاحيتها لكل زمان ومكان(٢).

وقد خصص المؤلف الباب الأول بكامله لدراسة الاستشراق وعنايته بالتراث العربي الإسلامي وهو يشغل أقل من ثلث الكتاب أذ يحتل الصفحات بين ١٣ و٢٤٠. وهو دراسة مفصلة كل التفصيل لهذا الموضوع التمهيدي. وقد قسمه المؤلف إلى مدخل وخمسة فصول. وقد حلل في المدخل انتشار الإسلام وقيام الدولة الإسلامية الكبرى وانتصار اللغة العربية وآدابها على اللغات والآداب الأخرى مما أدهش العلماء وجعلهم يبحثون في هذه المعجزة التي أدهشت العالم قديماً وحديثاً. وهو في مدخله هذا يؤكد على دور العقيدة الإسلامية الأساسي في توحيد العرب وفي جعلهم ينتصرون على أعدائهم عسكرياً وحضارياً وفكرياً وذلك بسبب عظمة الدين الإسلامي وسموه الفكري والحضاري.. «ولا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السرية التي مكنت جماعة من المحاربين الحفاة من الانتصار على شعوب متفوقة عليها تفوقاً كبيراً في الحضارة والثروة والخبرة والقدرة على شن الحرب»(٤) ثم ينتقل إلى ذكر الصراع الدامي بين الإسلام والغرب ومحاولات الغرب المتكررة استرداد قبر السيد المسيح وعجزه عن ذلك، وكيف أنه خلال ذلك الصراع الدامي المستمر بين العرب والغرب ولدت في أوربا فلسفة الاستشراق التي تسعى جاهدة إلى معرفة حضارة الشرق(٥).

ولقد خصص المؤلف الفصل الأول من الباب الأول للتعريف بالاستشراق والاستعراب والاستغراب. وقد بدأ بلفظة استشراق وأتى بالمعنى اللغوي ثم المفهوم العلمي للكلمة ودعم آراءه بعرض مفهوم علماء الغرب لكلمة استشراق وما يفهمونه منها. وقد ذكر أن أول استعمال لكلمة مستشرق رأيناه في سنة ١٦٣٠م حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية(٦). ثم يستطرد في ذلك استطراداً واسعاً ويأتي بتعاريف كثيرة وآراء متشعبة لعدد كبير من المعاجم والموسوعات والعلماء مدى العصور وينتهي من ذلك إلى آراء محددة في الموضوع.

بعد ذلك ينتقل إلى عرض آراء العلماء العرب في الاستشراق ولفظه ومدلوله ومحتواه ويلخص آراء عدد كبير من الأدباء المحدثين في الموضوع من أمثال أحمد حسن الزيات وأحمد الأسكندري ومالك بن نبي وغيرهم. وبعد ذلك يلخص ما وصلوا إليه في الموضوع في نقاط محددة. وينهي بحثه في هذه النقطة بموازنة بين آراء الطرفين.

كذلك يخصص المؤلف حيزاً لا بأس به لدراسة كلمتي استعراب واستغراب وما تعني هاتان اللفظتان وكيف تطورتا ويدعم أقواله بآراء جمهرة من العلماء والبحاثة الأوربيين والعرب. وقد خصص المؤلف الفصل الثاني لدراسة حركة الاستشراق ودراسة دوافعها ونشأتها وأطوارها واتجاهاتها وخصائصها.

ففي رأيه أن الاستشراق يمثل حركة متواصلة الحلقات يحاول فيها الغرب التعرف على الشرق علمياً وفكرياً وأدبياً، ثم استغلاله اقتصادياً وثقافياً واستراتيجياً وجعله منطقة نفوذ له يسيطر بها على العالم بأسره(٧).

وعند تحليله لدوافع الاستشراق يقسم هذه الدوافع إلى دوافع نفسية وهي الرغبة الانسانية في معرفة الآخرين والاتصال بهم ودوافع تاريخية تتمثل في تعاكس التاريخ الأوربي مع التاريخ الشرقي ودوافع إقتصادية تتمثل في رغبة الغرب في التعامل الاقتصادي مع الشرق واستغلال ثرواته، ودوافع ايديولوجية، وتكمن هذه الدوافع في وجود الأيديولوجيات المختلفة، أيديولوجية الأفراد والجماعات والدول

والحكومات والأجناس والقوميات .. إلخ وكل منها تسعى لتفرض نفسها على غيرها وتسيطر عليها ويهدف صاحبها إلى أن يكون رئيساً والآخر مرؤوساً(٨) وهناك الدوافع الدينية التي حفزت الغرب للتعرف على ديانات الشرق وبخاصة الإسلام، والدوافع الاستعمارية والدوافع العلمية. ويحلل المؤلف هذه الدوافع ويستطرد للحديث عنها ويعززها بالشواهد هنا وهناك.

أما أسلوبه في دراسة نشأة الاستشراق فهو أسلوب الحكام والقضاة: استعرض آراء الباحثين العرب في الموضوع وهم كثر من أمثال أحمد أمين وأحمد الشرباصي ونجيب عقيقي وأحمد الاسكندراني وغيرهم، ثم استعرض آراء المستشرقين أنفسهم في نفس الموضوع من أمثال لامانس وبرنارد لويس ويوسف جبرا وغيرهم ثم يدلي هو برأيه في الموضوع. وقد بناه على آراء الآخرين وحاول التوفيق بين الآراء المتضاربة. ويستعرض جهود الدول الأوربية في هذا المجال وكيف بدأت اهتماماتها بالشرق.

وهو يقسم الاستشراق وأطواره إلى أطوار ثلاثة الطور الأول طور التأسيس والنمو والطور الثاني الذي ترافق مع الحروب الصليبية واستمر حتى مطالع العصور الحديثة والطور الثالث الذي بدأ في أواخر القرن الثامن عشر واستمر حتى الآن.

وفي رأيه أن الاستشراق له اتجاهات مختلفة أهمها الاتجاه العقدي الذي «نشأ منذ بدأت المواجهة بين المسيحية والاسلام، وإذ أحس أتباع المسيح أنهم أمام خطر يجب عليهم مواجهته، وقد بدأت هذه المواجهة أثر انطلاقة الإسلام من الجزيرة واستمرت حتى اليوم»(٩) وهناك من الشواهد ما يدل على أن الرصيد المختزن من مشاعر العداوة للإسلام يمتد الآن إلى العرب وعلى وجه أخص إلى القومية العربية(١٠). أما الاتجاه العلمي فلا تكاد تصادفه إلا في الحقب الأخيرة، ذلك لأن الكنيسة كانت تسيطر على الاستشراق بقوة وتسخره لمصالحها، ولكن ما إن يخلص الاستشراق من سيطرة الكنيسة حتى سيطرت عليه أيديولوجية الاستعمار واستطاعت أن تسخره في سبيلها وتحركه لخدمة أهدافها وتبعث به إلى البلاد التي تنوي غزوها لكي يكون احتلالها لهذه البلاد قائماً على معرفة كاملة بجميع شؤونها فيكون أرسخ قدماً وأثبت مقاماً(١١)

خصص المؤلف الفصل الثالث من الباب الأول لدراسة علاقة الاستشراق بكل من الاستعمار والتبشير والصهيونية. فمهد لهذا الفصل بمقدمة طويلة استعرض بها جهود الغرب في السيطرة على الشرق وبشكل خاص العالم العربي والإسلامي. وقد لجأ إلى التاريخ، فدرس تاريخ هذه الجهود منذ ظهور الإسلام حتى الوقت الحاضر وبين كيف تحالف الاستعمار مع التبشير والصهيونية من أجل تحقيق هذه الغاية. ولقد كان هدف الغرب الأساسي في جميع تصرفاته نحو الشرق هو قهر الاسلام في عقر داره في العالم العربي بالذات، حتى معاملته مع الأمبراطورية العثمانية كانت على هذا الأساس على الرغم من عداوته لها ورغبته في سحقها(١٢). بعد ذلك بدأ المؤلف يدرس العلاقة بين الاستشراق وكل عنصر من العناصر الثلاثة. فبين بوضوح تام العلاقة بين الاستشراق والاستعمار وكيف أن الاستعمار في حربه من أجل احتلال البلاد الاسلامية شن حرباً ضروساً شعارها : مدرسة أو مستشفى أو ملجأ أو كتاب، أو مقال أو ما إلى ذلك من خداع العناوين التي يقطر باطنها بالسم الناقع(١٣) ولقد لجأ الاستعمار إلى إرسال وكلائه إلى البلاد العربية وهؤلاء كلهم من المستشرقين. وقد تعاون الاستعمار والاستشراق قروناً طويلة وكان أغلب وأشهر المستشرقين موظفين في وزارات المستعمرات من أمثال ميور ومرغوليوث ولامانس ونولدكه..

وعندما أتى لدراسة الاستشراق والتبشير أفاض في هذه الدراسة وبين كيف أن أغلب المبشرين كانوا مستشرقين كما أن العكس صحيح تماماً. ولقد ذكر أساطين المبشرين وبينوا أنهم لجأوا إلى الكلمة المطبوعة وألفوا الكتب الكثيرة في الهجوم على الاسلام وبيان تأخره وسمو النصرانية ويذكر طائفة منهم باسمائها. ويذكر الباحث أن الدافع الحقيقي للتبشير والاستشراق هو استعمار البلاد الاسلامية ولا يتحقق ذلك إلا بتحطيم الاسلام باعتباره القوة العظمى الأساسية التي تقف في وجهه ولكن ما دام هذا هو هدف الغرب الحقيقي فأجدر من يستطيع القيام بهذه المهمة هو الاستشراق والتبشير اللذان اصبحا الدعامة الأساسية للهجمات الحديثة على المسلمين وتوهين القيم الاسلامية والغض من اللغة العربية الفصحى وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب الاسلامية والتنديد بأحوالها الحاضرة والازدراء بها في المجالات الدولية(١٤).

ونفس الروح تحركه في دراسة العلاقة بين الاستشراق والصهيونية واتبع نفس الأسلوب في البحث والمنهج. فقد بدأ باستعراض تاريخي للوضع وبين كيف التقت مصالح اليهوذية العالمية مع مصالح الغرب

فأدى الأمر إلى تحالف بين الطرفين للقضاء على الاسلام وقوته وتقطيع أوصاله واقتطاع مكان الصدارة في فلسطين وتأسيس دولة دخيلة فيها تكون سنداً للغرب وعامل قهر وسيطرة على الشرق والمسلمين والعرب.

وذكر الجهود التي بذلها اليهود للسيطرة على فلسطين وكيف ساعدهم الاستشراق لتثبيت حقهم المزعوم وبين كيف أن أغلب المستشرقين كانوا ولا زالوا من اليهود. ثم يعود الباحث إلى التاريخ مرة أخرى ليذكر كيف أن المسلمين لم يضطهدوا اليهود عبر حقب التاريخ وأن الذي اضطهد اليهود هم النصارى ويذكر وقائع من ذلك. ويذكر أن العداء بين اليهودية والنصرانية أكبر بكثير مما هو بين اليهودية والإسلام. ولكن جمع الطرفين كرههم للإسلام وأهله ورغبتهم في القضاء على الإسلام وقوته واستعمار أراضيه والسيطرة على مقدراته.

يخصص المؤلف الفصل الرابع لدراسة عناية الاستشراق بالتراث العربي الإسلامي. وقد لجأ إلى مقدمة تاريخية يذكر كيف أهتم الغرب من أقدم العصور بحضارة الشرق وكيف أن حضارة الشرق أقدم من حضارة الغرب وأثرت فيها بعمق ويؤيد ذلك بشواهد التاريخ. ثم يذكر أوائل من أهتم بالتراث العربي الإسلامي وكيف أن مؤتمرات الاستشراق ركزت على هذه الناحية وأوجدت الأدوات اللازمة لذلك. وقد ذكر كيف حافظ القوم على المخطوطات العربية وكيف اشتروها وكيف درسوها وكيف نشروها. كذلك أوجدوا المطابع العربية لطبع الكتب العربية وأسسوا المعاهد المختلفة لدراسة الشرق وحضارته وآثاره وأوجدوا الكراسي في أمهات الجامعات للدين الاسلامي والتراث الاسلامي واللغة العربية .. كل ذلك قبل أن يبدأ شيء من هذا في العالم العربي والاسلامي عندما كان الشرق كله يغط في سبات عميق. فقد طرقوا كل ناحية من نواحي ثقافتنا وعالجوا كل أمر ذي شأن في ديننا وحضارتنا متبعين في دراساتهم طرق البحث العلمي المنظم(١٥) وإن كانت عصبيتهم تقودهم في كثير من الأحيان إلى الانحراف لأنهم كانوا يغضون الأبصار عن الطابع الروحي .. الذي ولدت في أحضانه أحداث الاسلام وطبقت أوامر القرآن، وسبب شغف الاستشراق بالتراث العربي الاسلامي أكثر من شغفه بغيره من التراث الشرقي هو أثر الحضارة الاسلامية في العقلية الأوربية التي تشعر بحق بأنها «ابتداء من الفلسفة والرياضيات إلى الطب والزراعة مدينة لتلك الحضارة بشيء كثير»(١٦) ويذكر أنه بسبب من جهود المستشرقين هذه تعرف العالم على مدنية الاسلام وحضارته الفكرية بشكل خاص. ثم يذكر موقف مفكري العرب في العصر الحديث من جهود المستشرقين هذه ويأتي بآراء المحبذين وآراء المتشككين ويختم بحثه بذكر المجالات التي اعتنى الاستشراق بدراستها من جوانب الحضارة الاسلامية منها عنايته بدراسة الاسلام كدين وعنايته بدراسة القرآن وعلومه والحديث الشريف وعلومه والفقه الاسلامي ومدارسه والتاريخ الاسلامي والعلوم الاسلامية واللغة العربية والأدب العربي.

بحث المؤلف في الفصل الخامس، فلسفة الاستشراق، وكالعادة بدأ بحثه بمقدمة حول تعريف الفلسفة وماهيتها ومفهومها وموضوعها وأفاض في ذلك ثم انتقل إلى ذكر ماهية فلسفة الاستشراق، وفي رأيه أن هذه الفلسفة نشأت أساساً من الرغبة في دحض تعاليم الإسلام وإثبات تفوق النصرانية على الإسلام كدين، كما وأنها نشأت بسبب المسائل والتساؤلات التي أثارها الاسلام ضد الديانة النصرانية بشكل خاص وليس لديهم جواب واضح عنها فلجأوا إلى الفلسفة يحاولون الإجابة على هذه التساؤلات. ينتقل بعد ذلك إلى دراسة نزعات الاستشراق فيقسمها إلى نزعة تفوقية تنادي بتفوق الغرب في كل شيء على الشرق ويمثل هذه النزعة رينان الذي كال الاتهامات إلى الإسلام في محاضرته الشهيرة: الإسلام والتقدم(١٧) ونزعة تحليلية تهدف إلى تحليل المعطيات والأفكار والحضارات حتى يمكن الحكم لها أو عليها ويمثل هذه النزعة الانكليزيان جيب وبوين، وهناك النزعة التخصصية التي تجعل فئة من المستشرقين يتخصصون في دراسة ناحية معينة من نواحي الحضارة الاسلامية وهذه هي أهم النزعات في الوقت الحاضر. وهناك النزعة اللاهوتية التي بدأها علماء اللاهوت النصراني وتنظر للأمور كلها من وجهة نظر كنسية، وهناك النزعة السياسية التي كان هدفها سياسياً بالدرجة الأولى من كل نشاطاتها ويخصص المؤلف حيزاً لا بأس به من الفصل لدراسة مدارس الاستشراق وهو يوزعها جغرافياً فهناك المدرسة الفرنسية والمدرسة الانكليزية والمدرسة الألمانية والمدرسة الروسية .. ويخصص حيزاً لا بأس به لدراسة معطيات المدرسة اليوغوسلافية وهي المدرسة التي ينتمي إليها المؤلف بحكم قوميته.

يشغل الباب الثاني من الكتاب والذي عنوانه: الأدب العربي

بين علماء الاستشراق وعلماء العرب حيزاً مهماً من الكتاب من صفحة ٢٤١ إلى صفحة ٤٢٢ وقد قسمه إلى مدخل وخمسة فصول. درس في المدخل عصور الأدب العربي من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث. وتناول في الفصل الأول معضلة البحث الأدبي وبين الصعوبات الناجمة في الموضوع وكيف أن الموضوع متسع ومدلوله يختلف وخصائصه متغيرة وأورد مناهج العلماء في دراسة موضوع الأدب. وقد بدأ بدراسة منهج علماء الغرب بدءاً من سقراط حتى كوليردج وديكارت وأحزابهما ثم أتبعه بدراسة منهج علماء العرب وقد اتبع المنهج التاريخي الاستقرائي ورد فيه التهم ودافع عن الفكر العربي الاسلامي وبين أن لدى المسلمين منهجاً علمياً دراسياً مستقلاً واستعان بآراء علماء أوربا المنصفين في هذا الشأن. والفصل الثاني خصه بدراسة مقاصد علماء العرب القدامى للموضوع فاتبع التسلسل الزمني التاريخي وعرض كيف نشأ هذا المنهج وما هي العوامل التي أدت إلى ظهوره ثم أتبعه بعرض آراء العلماء والأعلام الذين شاركوا في هذا النشاط من أمثال محمد بن سلام الجمحي والجاحظ وابن قتيبة ومحمد بن طباطبا وقدامة بن جعفر والقاضي والآمدي وغيرهم. وقد أتى بآراء كل عَلَم من هؤلاء الاعلام فيما يتعلق بالأدب بعامة وبكل فن من فنونه، وعدد مؤلفاتهم وبين اتجاهاتهم، كل ذلك بدراسة مفصلة مستفيضة. وحتى تكمل الصورة فقد خصص الفصل الثالث لدراسة اتجاهات ومواقف علماء الاستشراق من نفس الموضوع. وقد افتتح الفصل بكارل بروكلمان وجهوده في هذا السبيل وذكر نشاطه ودرس منهجه ولا سيما كما يبدو في كتابه تاريخ الأدب العربي الذي يعتبر أنه جاء على نمط لا يمكن أن نعده تاريخاً في الأدب العربي وحده وإنما نعده في رأينا مرجعاً هاماً لأعمال المؤلفين والشعراء العرب[١٨] وهو في عرضه لآراء بروكلمان يبين أماكن الخطأ والصواب ويظهر تعصبه ضد اللغة العربية وضد الاسلام وضد رسول الله ﷺ[١٩] ويستطرد في ذلك كل الاستطراد. ينتقل بعد ذلك إلى دراسة جهود عدد من أعلام المستشرقين من أمثال نللينو ونيكلسون وبلاشير وجيب وكراتشوفسكي وغيرهم ممن اهتم بالدرأسات الأدبية العربية وقد اتبع نفس المنهج الذي اتبعه في دراسة كارل بروكلمان وهو مذهب وصفي عرضي دفاعي انتقادي يشكر عليه.

كذلك خصص الفصل الرابع من نفس الباب لدراسة آراء واتجاهات الأدباء العرب الحديثين من الأدب العربي وأصالته واستعرض آراء الكثيرين منهم من أمثال جرجي زيدان والرافعي والعقاد والمازني ونعيمة وطه حسين وهيكل والزيات ومحمد مندور وغيرهم كثير. وقد بسط القول كثيراً في آراء كل منهم في الموضوع ولخص كتبهم وبين اتجاهاتهم واهتماماتهم. وختم بحثه في الباب الثاني بفصل خامس ختامي للموازنة بين أعمال هؤلاء وأولئك وآراء الطرفين وبين ما أسداه المستشرقون من أيادٍ إلى هذه الأبحاث وما قاموا به من دس، كذلك بين تأثر العرب المحدثين بآراء المستشرقين وكيفية التأثر، سلباً أو إيجاباً.

أما الباب الثالث الذي هو أوسع الأبواب، وهو في الحقيقة موضوع الكتاب، فقد درس فيه الاستشراق وأثره في الأدب العربي المعاصر. وهو موضوع معقد وطويل وشائك ويحتاج إلى معرفة تامة وإحاطة كاملة بكل جوانب الموضوع.

وقد قسم هذا الباب الذي يحتل الصفحات ٤٢٤ إلى ٧٢١ إلى مدخل وخمسة فصول. وقد لخص في المدخل تطور مفهوم الأدب عبر العصور وكيف أن الإسلام رفع الأدب العربي إلى ذروة سامقة وكيف أن هذا الأدب لعب دوراً خطيراً جداً في الحضارة الإسلامية وفي إنتقاء اللغة العربية والمفاهيم الاسلامية، ثم يستطرد لذكر الأخطار التي تعرضت لها اللغة العربية والأدب العربي قديماً وحديثاً مثل الخطر الصليبي والخطر المغولي والخطر الاستعماري.. وكيف أدت هذه الأخطار إلى بروز أدباء همهم الدفاع عن ذلك الأدب وإبراز جماله ودوره. وانطلاقاً من هذا المفهوم فقد أوقف الفصل الأول لدراسة نهضة الأدب العربي المعاصر وقد افتتحه بمقدمة تاريخية استعرض بها تطور الأدب العربي خلال عصور الإنحطاط ثم عرض بشكل مفصل لليقظة الفكرية واليقظة العلمية اللتين أدتا إلى نهضة الأدب العربي المعاصر. وقد ركز، فيما يتعلق باليقظة الفكرية، على الحركات الإصلاحية الدينية التي وجدت في العالم العربي مثل دعوة محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية وغيرها من الحركات الإصلاحية. ونجد المؤلف هنا يخالفه الصواب عندما يعطي الأولوية في يقظة العرب الفكرية إلى الحركات الإصلاحية الداخلية لا إلى الإرساليات الأجنبية ولا لحملة نابليون على مصر، لأن «الحركات الدينية المحلية لعبت دوراً تحريرياً ضد الاستعمار في عدد كبير من هذه الشعوب برغم وجود المنظمات

التبشيرية الأوربية والأمريكية التي لعبت في هذه الظروف دور الأداة النشطة للتغلغل والسيطرة الإمبريالية. إن الصيحة الأولى للنضال الوطني كانت باسم الله قبل أن تكون باسم الوطن. ولقد كان الإنتماء إلى الإسلام في الجزائر في القرن التاسع عشر، بمثابة احتجاج ضد السيطرة الاستعمارية وضد بؤس الجماهير وإذلالها(٢٠) وفيما يتعلق بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول المؤلف: وقد كانت الدعوة الوهابية فاتحة الدعوة إلى تحرير الفكر، وقد تلاها بعد ذلك حركة تحرير الفرد التي دعا إليها المشايخ والعلماء في مصر(٢١) أما اليقظة العلمية فيذكر الباحث أنها ولدت مع الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م ويأتي على ذلك بأدلة كثيرة ويستشهد بآراء كثير من البحاثة. ينتقل المؤلف لدراسة النهضة الأدبية التي بدأت في مصر وانتقلت إلى غيرها من أقطار العالم الاسلامي فيحللها ويورد آراء كثير من الباحثين المصريين في أسبابها ومظاهرها والعوامل التي أدت إليها مثل إدخال الطباعة وتأسيس المدارس زمن محمد علي وفتح المعاهد العليا وإصدار الصحف والمجلات والنقل من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وتأسيس الجامعات وإحياء التراث ونشره. ثم ينتقل إلى دراسة نهضة الفنون الأدبية واحداً واحداً فيبدأ بدراسة نهضة الشعر ويذكر حال الشعر قبل العصر الحديث وجهود فطاحل الشعراء في هذا المجال من أمثال البارودي وصبري وشوقي وحافظ والزهاوي وغيرهم حتى يصل إلى الوقت الحاضر. كذلك يدرس بنفس المنهج ونفس الروح يقظة ونهضة النثر العربي ويذكر كيف أن هذا النثر تطور وأهمل المحسنات اللفظية ورجع إلى منابع الثقافة الأدبية العربية الأولى يعب منها وعرض جهود أساطين ذلك النثر من أمثال محمد عبده والكواكبي وعلي مبارك واليازجي والبستاني والمويلحي وقاسم أمين ومصطفى كامل.

ودرس المؤلف اهتمام الاستشراق بدراسة الأدب العربي المعاصر وذلك في الفصل الثاني وعرض لبيان أسباب هذا الاهتمام، ثم انتقل إلى دراسة اهتمام الاستشراق بدراسة الأدب العربي القديم وعرض لدراسات بروكلمان ونيكلسون وغيرهما في هذا المجال. واتبع ذلك بدراسة اهتمام الاستشراق بدراسة الأدب العربي الحديث وبين صعوبة الموضوع ومجاله ومظاهره وذكر ظاهرة نقل الكتب العربية إلى اللغات الأوربية ويذكر أنه صدر للأدباء العرب ١٢٤ كتاباً يناهز عدد نسخها خمسة ملايين ونصف مليون في ٣٠ لغة من لغات الاتحاد السوفييتي(٢٢) وعرض كذلك لذكر جهود وأعمال أشهر المستشرقين الذين اهتموا بهذا الموضوع من أمثال كراتشوفسكي وجرمانوس وبيرك وغيرهم. وقد لخص الباحث في الفصل الثالث أثر الاستشراق في الأدب العربي المعاصر فشرح الوسائل التي أثر بواسطتها الاستشراق في هذا الأدب مثل إرسال البعثات العلمية إلى أوربا وحضور العرب مؤتمرات الاستشراق والاستعانة بالمستشرقين للتدريس في الجامعات العربية وترجمة أعمال المستشرقين إلى العربية وغيرها. ثم انتقل إلى دراسة الميادين التي أثر بها مثل تحقيق المخطوطات. وهنا عرض لجهود برجستراسر في هذا المجال وبين اهتماماته وكيف أنه أثر في عدد من المحققين من أمثال هارون والمنجد، ودراسة الأدب العربي وتأليف دائرة المعارف الإسلامية وفهرسة المعاجم العربية وتأثير الأدب العربي وتأثره بالآداب العالمية، وهنا يعرض المؤلف لآراء عدد كبير من المستشرقين وأعمالهم ويرد على كثير منهم ولا سيما من تعرض للطعن في الاسلام أو في شخصية الرسول عليه السلام أمثال مارغوليوث وغيره. ويختم بحثه بذكر الأدباء الذين نادوا بتغريب الأدب مثل طه حسين وأدونيس والشابي وغيرهم وأهم الأدباء الذين دافعوا عن الأدب العربي وأصالته أمثال الزيات والرافعي وغيرهما.

والفصل الرابع مهم لأنه يدرس موقف الاستشراق من بعض القضايا الكبرى مثل العقلية العربية والقومية العربية واللغة العربية والتشكيك في التراث العربي الإسلامي وموقف العرب من الاستشراق. وهو يبسط رأي المستشرقين في الموضوع ويرد عليهم بما يناسبه المقام ويستشهد بآراء عدد كبير من الباحثين العرب في الموضوع. وهو يشكر بشكل خاص لدفاعه الحار عن اللغة العربية ولرده لهجوم المستشرقين عليها والدعوة إلى إحلال العامية محلها. كذلك يرد هجوم المستشرقين على التراث العربي الإسلامي ويبين أصالة هذا التراث وارتباط تلك الدعوة مع الشعوبية والاستعمار. أما بحثه في موقف العرب من الاستشراق فهو في الحقيقة عرض لموقف عدد كبير من الباحثين العرب من هذا الموضوع الخطير، وقد أتى بأسماء طائفة كبيرة من العلماء الاعلام ابتداءً من محمد عبده والأفغاني وانتهاءً بأنور عبد الملك. وهو يعرض آراء كل عالم بين محبذ ومهاجم ومشكك ومعتدل.

والفصل الأخير الذي هو الخامس ثبت بأهم منجزات

الاستشراق وإضافاته إلى الأدب العربي المعاصر. وهو يقسم الموضوع إلى عناصر منها تعريف الغرب بالتراث العربي الإسلامي ومنها التنقيب في التراث العربي والاسلامي ومحاولة تقويمه واتباع المنهج النقدي في دراسته وغير ذلك من الأمور.

وقد ختم الباحث كتابه بخاتمة لخص فيها الخطوط الكبرى لبحثه الذي يتمثل فيما يلي :

عني البحث بتسجيل الاتجاهات العامة للاستشراق خلال عصوره وعهوده المختلفة عن البحث بتسجيل النشاط الاستشراقي الذي تغلغل في جميع الميادين العقلية والفكرية والثقافية في بلاد الشرق منذ أكثر من قرن وامتد حتى الآن.

إهتم البحث كل الاهتمام بالجانب الأدبي، وإن لم يتجاهل الجوانب الأخرى بين الباحث ارتباط الأدب العربي المعاصر بالكفاح من أجل الحرية والاستقلال أكد البحث على ضرورة الدراسة الموضوعية للاستشراق وآثاره السلبية والايجابية.

وإذا نظرنا إلى الكتاب ككل لاحظنا أنه دراسة منهجية أكادمية لموضوع من أخطر الموضوعات التي تعرض للعرب والمسلمين في حياتهم والتي لا تزال تؤثر في مصائرهم. وفي رأينا أن الباب الأول من الكتاب هو أكثر أبواب الكتاب أهمية وتمكن الباحث أن يبرز الاستشراق كحركة فكرية ارتبطت مع التبشير والاستعمار ارتباطاً عضوياً، كما وأنه استطاع أن يبرز الإطار الفكري والفلسفي لتلك الحركة إبرازاً جيداً إلى جانب قدرة المؤلف على العرض التاريخي والسرد الوصفي وتدعيم آرائه بالشواهد الكثيرة.

هذا وإن المآخذ التي تؤخذ على هذه الدراسة كثيرة منها:

أنها دراسة مفصلة كل التفصيل حتى أن الفكرة الأساسية قد تضيع وتغرق من كثرة التفاصيل التي يأتي بها المؤلف. وهو يلجأ وباستمرار إلى دعم الرأي الواحد بعشرات الشواهد من هنا وهناك حتى ليحس القارىء بالسأم والملل، بل والتشتت، كما هو الحال بشكل خاص في الباب الثالث حيث يدرس تأثير الاستشراق في الأدب العربي المعاصر.

كذلك يلاحظ على هذه الدراسة أنه حشر بها أشياء كثيرة لا صلة مباشرة لها بالموضوع مثل آراء المؤلفين القدامى في الأدب العربي والنقد العربي وآراء المحدثين وآراء المستشرقين فهذه ليست بذات صلة مباشرة بالموضوع بحيث يخرج القارىء بانطباع أنه كان من الممكن اختصار الكتاب إلى النصف أو أقل دون أن يخل بالفكرة الأساسية للكتاب.

ويلاحظ على المؤلف تعصبه الشديد ضد الأتراك العثمانيين وطعنه بهم والهجوم عليهم ووصفهم بما يصفهم به ممثلو القومية العربية . «أما الأدب العربي، فلعله لم يمتحن في تاريخه الطويل بمثل ما امتحن به في العصر التركي المملوكي، فقد أطبق الظلام الدامس على جميع الأصقاع العربية تحت الحكم العثماني الذي اتسم بالتعصب للغة التركية، تلك اللغة التي لا تترجم عن حضارة ولا تعرب عن ثقافة تمتاز بها العقلية التركية.(٢٣)» «لقد تمت للأتراك السيطرة على العالم العربي بفتح السلطان سليم لمصر عام ١٥١٧م وظل حكمهم سائداً فيه بعدئذ زهاء ثلاثة قرون أو أكثر، ثم حل محلهم الاستعمار الغربي .. وعانى العرب من الحكمين معاً، وإن كان الثاني أهول وأفظع(٢٤)

وهذا مجانب للحق والصواب فالعثمانيون وسعوا دار الاسلام كثيراً وبشكل خاص في أوربا وهم حموا البلاد العربية من الوقوع في براثن الاستعمار الغربي، ولم يظهر تعصبهم للقومية التركية واللغة التركية إلا في أواخر عهودهم أواخر القرن التاسع عشر. وإذا كان المؤلف نفسه مسلماً فالفضل الأول في ذلك لله وحده ثم للعثمانيين الأتراك الذين نشروا الإسلام في أوربا وفي يوغوسلافيا بالذات. كذلك نراه، في كثير من الأحيان، يتبنى آراء دعاة القومية العربية الغلاة ويدافع عنها من أمثال ساطع الحصري وأمثاله.

ولا ندري كيف نفسر اقحامه لعبد الناصر وانقلابه الذي أحدثه سنة ١٩٥٢م، ووصفه له بالثورة العربية الكبرى عام ١٩٥٢م(٢٥). كذلك تمجيده لأحداث عام ١٩٧٣م وذلك عندما يتحدث عن مرحلة التأصيل والتأكيد في تطور الشعر العربي الحديث، فيذكر أن الحركات التأصيلية توالدت في أقطار الضاد وهاجت كالبركان الثائر خلال العدوان الثلاثي الغادر عام ١٩٥٦م.. وتغلبت على كل الصعاب فتألقت من جديد بشرارة اكتوبر عام ١٩٧٣م(٢٦) ولعل ذلك عائد إلى تأثره بآراء الأدباء الذين اقتبس منهم وعاصرهم وتتلمذ على أيديهم.

وإذا درسنا مصادر دراسته التي استقى منها معلوماته وجدنا أغلبها مصادر ثانوية وهي تمثل وجهة نظر خاصة في الموضوع، فأولا بلغ عدد المصادر الأجنبية ٢٧ مصدراً من مجموع المصادر في

العام البالغ ٦٦٩ مصدراً. وهذا نقص خطير في الموضوع ولا سيما أنه صدر من شخص يتقن الانكليزية واليوغوسلافية وله بعض المعرفة بالألمانية. وكانت النتيجة أنه يورد آراء المستشرقين، وهي آراء جد خطيرة ، مستقاة من مصادر عربية مترجمة عن الأصل، وهذا لا يليق. كما أنه لم يرجع لمحاضر جلسات مؤتمرات الاستشراق وهي زاخرة بالمواد الأصلية التي تضفي على الرسالة جواً علمياً جديراً بالثقة. كذلك أغلب المصادر العربية تمثل وجهة نظر القوميين العرب الذين يعتنقون مبدأ القومية العربيةخاصة ولا ندري كيف نفسر ذلك.

وإذا أردنا إصدار حكم نهائي على الكتاب كان لنا أن نقول إنه كتاب موضوعي إلى حد كبير ووضح كثيراً من المفاهيم، ودافع عن الدين الاسلامي والعقيدة الاسلامية أجمل دفاع في وجه هجوم المستشرقين والمشككين. ونختم بحثنا بالقول إن المؤلف، وهو غير عربي، ذو أسلوب عربي لا بأس به وعنده القدرة على توضيح أفكاره بسهولة، لا نجد في كتابه من الأخطاء اللغوية والنحوية والاملائية ما نجده في كتابات كثير من أبناء الناطقين بالضاد.

الهوامش

(١) ص ٧
(٢) ص ٨
(٣) ص ٨
(٤) ص ١٧
(٥) ص ٢٠
(٦) ص ٢٢
(٧) ص ٣٩
(٨) ص ٤٦
(٩) ص ٨٧
(١٠) ص ٩٤
(١١) ص ٩٦
(١٢) ص ١١٤
(١٣) ص ١١٩
(١٤) ص ١٢٩
(١٥) ص ١٦٠
(١٦) ص ١٦٠
(١٧) ص ١٩٩
(١٨) ص ٣١٥
(١٩) ص ٣١٨
(٢٠) ص ٤٣٤
(٢١) ص ٤٣٥
(٢٢) ص ٥١١
(٢٣) ص ٤٣٢
(٢٤) ص ٤٣٣
(٢٥) ص ٤٤٤ وص ٤٤٦
(٢٦) ص ٤٦٧